الحصاد الثقافي لعام 2006 [بريطانيا]:

روائيون يتحولون الى معلقين سياسيين عن الارهاب وانتصار للسينما السياسية وثراء في أدب الاقليات وتكريم بيلجر وفن عربي على ضفاف التيمز

ابراهيم درويش *

ادوارد سعيد

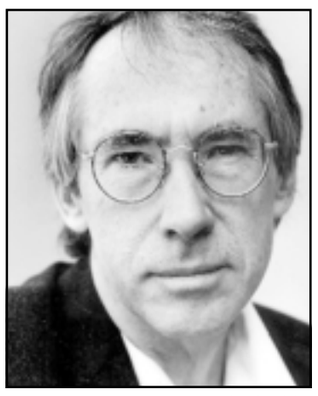
ايان ماكيوان

عائشة عظمي

مونيكا علي

■ كل عام ونحن نقبل على بداية عام جديد نحب ان نتذكر صور العام الذي مضى، وقد حفر عام 2006 في ذاكرتنا الكثير من الصور بريطانيا وعالميا، وعربيا فان كان 2003 هو الذي العام الذي دخلت فيه القوات الامريكية العاصمة العراقية بغداد واسقطت نظام الرئيس العراقي السابق صدام حسين وتمثاله في ساحة الفردوس، فعام 2006 سيظل مرتبطا بصورة صدام على حبل المشنقة، في يوم العيد، والصراخات تتعالى في مدح رئيس فصيل عراقي، ويلخص المشهد ما آل اليه الوضع العراقي والوضع العربي والعالمي، اعدام صدام كان حدثا عالميا غطى على صور اخرى مثل الفتاة الفلسطينية هدى غالية التي فقدت عائلتها على شاطئ غزة وهو عام ضرب لبنان وهو عام هزيمة الرئيس الامريكي جورج بوش في الانتخابات النصفية، ومع ان صور الحدث السياسي هي التي تحدد رؤية الناس وطبيعة استعادتهم لما جرى في العام الذي رحل الا ان الحدث الثقافي يظل حاضرا في ثنايا السياسي ويتأثر به ويحاول الرد عليه، وفي قراءة للحدث الثقافي تحديدا في بريطانيا فان اهم ما يمكن رصده هو تلك الردة والنقاش الذي دار حول طبيعة المجتمع البريطاني ومكوناته الاثنية والعرقية، حيث فتحت الذكرى الاولى لهجمات لندن في 2005/7/7 الباب امام اعادة النظر في ماهية التعددية الثقافية والحديث عن ماهية الاندماج، ويبدو ان الاعلام كان الحافز والمحفز للنقاش هذا من خلال الكم الكبير من المقالات والكتب (12 كتابا فقط عن هجمات لندن)، والافلام والبرامج الحوارية، وكان في مركز الجدل حجاب ونقاب المرأة المسلمة وفشل المسلمين «المعتدلين» في التصدي لنزاعات التطرف داخل المجتمعات المسلمة التي تعيش في بريطانيا، واللافت للانتباه ان الكثير من المثقفين او الروائيين الذين يظل التعبير الادبي هو الوسيلة والاداة التي يتم من خلالها النظر لما يجري، تحولوا لمعلقين سياسيين وكتاب يبشرون ويدافعون عن هذه النظرة او تلك، ويذكر في هذا الاتجاه سلمان رشدي الذي تراجع ادبيا ولم يعد الطفل المدلل للمشهد الروائي البريطاني او الامريكي، حيث هاجم الحجاب والنقاش ودعا لاصلاح الاسلام، كما يفهم على طريقة الاصلاح الديني الاوروبي، وهناك مارتن ايميس الذي كتب سلسلة من المقالات حول الارهاب والتطرف الاسلامي في الذكرى الخامسة لهجمات ايلول (سبتمبر) 2001، تحت عنوان «عصر البطولة» وكتب قصة قصيرة عن الايام الاخيرة في حياة قائد مهاجمي نيويورك وواشنطن محمد عطا، وكتابة ايميس الذي كان محسوبا على اليسار البريطاني ايام كان في مجلة «نيوستيتسمان» تأخذ كثيرا في تحليلها من منظري اليمين الامريكي، وهناك الصومالية ، التي كانت نائبة في البرلمان الهولندي واثارت جدلا في علاقتها مع مخرج هولندي، ثيو فان غوخ الذي تعاونت معه في انتاج فيلم مثير عن الاسلام، ودفع حياته ثمنا لهذا الفيلم، اما هي فقد رحلت الى واحد من معاهد اليمين الامريكي المحافظ، وتقدم الان اعيان حرسي على انها متخصصة وعارفة بالاسلام ومن يقرأ كتابها «العذراء السجينة» يعثر على افكار سطحية ورؤى تنم عن جهل بالدين وهي الآن تصف نفسها بالمسلمة السابقة ونشرت كتابا جديدا هو «كافرة». اعيان حرسي هي واحدة من الاصوات التي تقدم في المشهد الغربي باعتبارهن ممثلات لجيل من «المسلمات» المتحررات.

وفي سياق الاسلام وعلاقاته مع عالم الغرب اثار البابا بنديكتوس السادس عشر ضجة كبيرة عندما استشهد بمقولة امبراطور القسطنطينية التي وصف بها الاسلام بانه دين انتشر بحد السيف، واثارت تصريحاته التي جاءت في محاضرة اكاديمية في جامعة المانيا موجة غضب عارمة وجدالا من جديد عن صدام الحضارات والثقافات، خاصة بين الاسلام والمسيحية. انتهى الجدل عندما زار البابا تركيا وزار فيها مسجد آيا صوفيا في استانبول.

وبعيدا عن مشاركة المثقفين الروائيين في التعليق مباشرة على الحدث السياسي واتخاذ مواقف، كان المشهد الدولي حافلا بالاحداث الثقافية لعل اهمها وفاة الاديب العربي والعالمي نجيب محفوظ الذي اسس للكتابة الروائية العربية والسرد العربي، ونجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل، يذكرنا بالجائزة التي منحت هذا العام للروائي التركي اورهان باموق، الذي كتب عن روح تركيا المراوحة بين الشرق والغرب وعن مدينته استانبول، وحقيبة والده هي عنوان محاضرته التي القاها في اثناء تسلمه لجائزة نوبل. عام 2006 كان غنيا وحافلا بريطانيا، مع ان حربا صغيرة ومحلية اندلعت بين مؤلفين حول علاقتهما بشعر جون بيتجمان (1906ـ1984) الذي حلت مئويته 2006 عندما اعترف كاتب حياة بيتجمان الذي قضى ربع قرن في كتابة اكثر من ثلاثة مجلدات عن حياة الشاعر المحبوب للانكليز، وقال بيفس هيللير انه كان وراء عملية خداع لكاتب اخر وهو اي ان ويلسون الذي اصدر سيرة جديدة للكاتب، ومفاد القصة ان هيللير ارسل رسالة زعم كاتبها انها حقيقية وكتبها بيتجمان وتبين فيما بعد انها مزيفة. كما اتهم الكاتب المعروف ايان ماكيوان بسرقة افكار روايته التي حصلت على جائزة البوكر المعروفة من مذكرات كاتبة رومانسية كتبتها عن لندن اثناء الحرب العالمية الثانية، الرواية هي «تكفير» والمذكرات تعود الى الكاتبة لوسيلا اندروز «لا وقت للحب» وقد دافع ماكيوان عن نفسه في مقال نشرته الغارديان واعترف ان والدته كانت مغرمة بكتابات اندروز ولم يتطور الامر الى اشكاليات قانونية كما حدث مع دان براون مؤلف الراوية الشهيرة «شيفرة دافنشي» التي اقتضت جلسات قضائية وانتهت لصالح براون، سنلتقي مع براون في روايته التي صارت فيلما عندما نستعرض افلام العام الماضي.

كما احدثت رواية نشرتها شابة من اصل هندي اسمها كافيا فينسوانثا «كيف حصل اوبا ميثا على قبلة وصار متوحشا وحصل على حياة» والتي تبين انها نقلتها عن عمل كتبته امريكية اسمها ميغان ماكيفرتي.

من الاحداث اللافتة في المشهد الادبي البريطاني ترشيح رواية الكاتب الليبي هشام مطر «في بلد الرجال» للقائمة النهائية في جائزة بوكر ولم يفز مطر ولكن روايته الاولى حظيت بمراجعات جيدة عن طفولة ولد في ليبيا اثناء تحولاتها السياسية، وما دام الحديث عن ليبيا فيمكن القول ان العام البريطاني كان قريبا من ان يكون ليبيا بعد عرض اوبرا عن حياة القذافي في الاوبرا الوطنية الانكليزية والعروض وان كانت محدودة الا انها لقيت الكثير من الاهتمام، وقامت بانتاجها مجموعة «ايشيان داب فاونديشين»، واستعرضت الاوبرا اللحظات المهمة في حياة العقيد القذافي والهجوم الامريكي عام 1986 والتحولات الي رافقت مسيرته، ولوكربي.

وفي هذا العرض الذي نقدمه، نضطر احيانا لنعيد ما سبق وقلناه في اعوام سابقة من ان الحصاد ليس شاملا، لان الحدث الثقافي باعتباره نشاطات وفعاليات ومهرجانات، تحدث بشكل دوري، فهناك مهرجان لندن للافلام الذي قدم هذا العام الكثير من الافلام المهمة والتي لم يكن للسينما العربية فيه الا فيلم «عمارة يعقوبيان». اضافة الى مهرجان ادنبرة الدولي، ومهرجان هي اون وين الذي يحتفل بالكتاب والادباء وغيرها من التظاهرات الثقافية الخاصة التي تقيمها الغاليرهات والمتاحف في لندن على مدار العام.

في الرواية:

الرواية في عام 2006 شهدت اصدارات لاسماء معروفة، وشهدت قادمين جدداً تسيدوا مشهد الجوائز، فقد حازت الكاتبة الهندية المقيمة في امريكا كيران ديساي وابنة الروائية الهندية انيتا ديساي على جائزة بوكر – 2006 عن روايتها «ارث الضياع» وهي راوية عن الهند والهجرة والتوزع بين المنفى والوطن، فيها الكثير من ملامح الواقعية السحرية، ولم تحظ جائزة بوكر بالتغطية الاخبارية التي عادة ما تحصل عليها في كل الاعوام التي سبقت وذلك بسبب تقليل المؤسسة التي تدعم الجائزة منذ اعوام طويلة من الدعم لها. وفي الوقت الذي اصدر فيه مارتن ايميس روايته عن «بيت اللقاءات» والاسترالي بيتر كيري «سرقة» وهو الكاتب الذي يقيم في نيويورك ـ الا ان بعض الروائيين حاولوا ادخال الارهاب والحرب عليه في منظومة سردهم وهو الاتجاه الذي بدأ عام 2005 مثل رواية ماكيوان «سبت»، وقد قدم ايميس الذي اشرنا إليه عملا قصيرا عن الايام الاخيرة في حياة محمد عطا، بناها على قراءته للوصية المنسوبة لعطا، ويحاول ايميس اللعب على فكرة وجود تناقض بين عطا وزياد الجراح الذي لم يستطع الوصول الى هدفه بعد ان اسقطت طائرته فوق فيلادلفيا. وهذا يقود للحديث عن محاولة الامريكي جون اوبدايك «ارهابي» عن شاب نصف امريكي ونصف مصري يعيش مع والدته التي انفصلت عن زوجها او اختفى زوجها ولم يعد ابدا، والرواية وان كانت عن علاقة البطل المسلم بالارهاب الا ان القارئ يخرج بشعور ان البطل في النهاية هو «امريكي» نتاج الثقافة المحلية او المكان الذي عاش فيه البطل.

جون لوكاري، كاتب الروايات البوليسية شارك برواية «اغنية المهمة» والتي لم تختلف عن مجمل الكتابات الروائية التي قدمها لوكاري في اعمال مثل «خياط بنما» وغيرها.

مونيكا علي، صاحبة رواية «بريكلين» عادت هذا العام برواية مختلفة في الفضاء والموضوع، وهي «زرقة الينيتجو» في اقليم برتغالي حالم، ولم تحظ باهتمام كروايتها الاولى. وما دام الحديث عن مونيكا علي، فقد تدخل سكان الحي المعروف في شرق لندن، والذي اصبح مكانا سياحيا معروفا، نظرا لمطاعمه البنغالية، لمنع فيلم يقوم على رواية مونيكا لأنه يشوه صورة الحي، وجاء التدخل بدافع اقتصادي وليس دينيا او اثنيا كما فهم من بعض التعليقات، فاصحاب المحلات تعبوا كثيرا لبناء حيهم وتحويله الى مكان للسياحة وفيلم كهذا قد يؤثر على منظورهم الاقتصادي. ويلاحظ ان عام 2006 شهد نوعا من النشاط فيما يعرف في الاوساط الثقافية «الرواية الاثنية» وتحاول دور النشر اللعب على فكرة البحث عن وجه اثني «اسيوي» للترويج لاعمالهم والكتابة عن مجتمعاتهم، فوغاتام مالكاني، صحافي شاب راهنت عليه الصحافة من خلال روايته «لندستاني» عن حياة الجيل الجديد من الشبان الاسيويين وعصاباتهم، والرواية وان قدمت لغة الشبان وطموحاتهم الا انها لم تحظ باهتمام كبير. موني حسين، باكستانية تعيش في بريطانيا، روايتها الاولى «نهاية البراءة» عن حياة فتاة وطفولتها في قرية صغيرة في شمال الباكستان، وعن صراع الاجيال، وجريمة قتل. والرواية الاثنية هذه لا تقتصر على الكتاب بالانكليزية، فقد ترجمت اعمال من لغات اخرى مثل رواية الاوزبكي حامد اسماعيلوف الذي يعمل في هيئة الاذاعة البريطانية «بي بي سي»، «سكة الحديد»، ورواية للايراني قادر اسماعيل «مفكرة ابي» والكاتب يعيش في هولندا ويكتب بلغاتها، وترجمت رواية الالباني، اسماعيل كاداريه «الوريث» عن ايام انور خوجة. بالنسبة للاصوات العربية قدم جمال محجوب، الكاتب من اصل سوداني عمله الجديد «انحراف باتجاه خط العرض»، اضافة لعمل الليبي الاول هشام مطر «في بلد الرجال». كما اصدرت الفلسطينية ياسمين زهران رواية تاريخية تقع ضمن اهتمامها بالقرن السادس الروماني الذي تقول انه كان قرنا عربيا، وروايتها «بعث غسان» محاولة معاصرة بقالب روائي لاحياء واستعادة دولة عربية نشأت على تخوم الحلم الروماني.

شعر ونقد:

الزمن هو زمن الرواية ولكن الشعر وان لم يحظ بجوائز او احتفاء فقد حظي بمشاركة للشاعر الايرلندي المعروف شيموس هيني الذي يعتبر من اهم الاصوات في الشعر الانكليزي المعاصر ان لم يكن الاهم، فديوانه «دائرة ومنطقة» هو تواصل مع تجربته الشعرية التي تغطي اكثر من اربعين عاما، عندما بدأ يكتب الشعر في بلدته في كاونت ديري في شمال ايرلندا. في هذه المجموعة الشعرية يوسع هيني ارض منجزه الشعري، يعود الى مدرسته في اناهوريش ومزرعة والده الذي كان جلاب مواشي، وشقيقه الذي قتل في خضم الصراع الذي شهده الاقليم لاعوام طويلة ولكن هيني يوسع اهتماماته ليشمل اهتمامه بالسلام في العالم وتظليل مساحات العنف فيه.

في النقد يمكن الحديث عن كتاب لاداورد سعيد الناقد والمفكر المعروف، وهو عن «الاسلوب المتأخر» عند الكتاب، وكان سعيد قد بدأ الكتاب ولكنه لم ينهه وقامت عائلته بالتعاون مع اكاديمي بتركيب الكتاب بصورة تعرض رؤية الناقد الراحل. وما دام الحديث يدور عن سعيد، فقد تعرض للهجوم من احد المدافعين عما قال انه شهوة للمعرفة التي دفعت المستشرقين للبحث والاهتمام في عالم العرب والاسلام، ورد بشكل حاد على كتاب اداورد سعيد بشكل ذكر بالهجوم الذي تعرض له بعد صدور الطبعة الاولى من كتابه «الاستشراق» في سبعينات القرن الماضي. ويحمل الكتاب الجديد الذي هاجم سعيد عنوان «شهوة للمعرفة» من تاليف بيتر ايرون.

تكريم كين لوتش فرنسيا على ريحه التي هزت الشعير ومعرض للخط العربي في المتحف البريطاني

سينما وافلام

عام 2006 كان جيدا للمخرج البريطاني المعروف كين لوتش الذي كرمه مهرجان كان بعد ان حصل على السعفة الذهبية عن فيلم «الريح التي هزت حقل الشعير» عن الكفاح الايرلندي في العشرينات من القرن الماضي وعنف الرد الانكليزي على الجيش الايرلندي الحر، وفي داخل الفيلم قصة عن الحب والوفاء والخيانة، ولم تعرض دور العرض البريطانية الفيلم بشكل واسع حيث عرض في عدد محدود من دور العرض السينمائي، ولوتش مخرج طليعي مهتم بالسينما ودورها الاجتماعي. ولا بد من تذكر جورج كلوني في فيلمه السياسي «سريانا» عن المال والنفط والعنف والشرق الاوسط، وحصل فيلمه على جائزة اوسكار. المودوفار، المخرج الاسباني المعروف قدم فيلمه «فولفر»، «شيفرة دافنشي» لم يكن فيلما بمستوى الرواية، لعب دور البطولة فيه توم هانكس. جيمس بوند او العميل (007) عاد ببطل جديد بعد بيرس بروسنان، هذه المرة كان دانيال كريغ الذي لعب دور البطولة في «كازينو رويال». هيلين ميرين قدمت تجسيدا جميلا وحيا للملكة البريطانية اليزابيث في فيلم «ملكة»، مارتن سكورسيزي عاد بفيلم جميل «الراحلون» اخيرا مع جاك نيكلسون، من جنوب افريقيا فاز فيلم «تسوتسي» بجائزة الاوسكار عن احسن فيلم اجنبي، عن حياة العنف والتشرد والطبقة الجديدة السوداء في مرحلة ما بعد التمييز العنصري. بورات، لشاشا كوهين، فيلم قدم على انه كوميدي وحاز اعجاب الكثيرين في امريكا عن صحافي قازاخستاني في رحلة تعليمية لامريكا لصالح امة قازخستان كما يشي عنوان الفيلم، وبورات هو عن العنصرية والعداء للسامية كما يقول كوهين الذي اسهم في كتابة نص الفيلم، واثار الفيلم جدلا على خلفية استخدامه غجر رومانيا كممثلين مساعدين ليصور تخلف وبدائية الحياة في قازخستان، لم تغب احداث ايلول (سبتمبر) 2001 عن صناع السينما حيث قدم فيلم يونايتد 83 عن الطائرة التي تفجرت فوق فيلادلفيا ولم ينجح فيلم اوليفر ستون «مركز التجارة العالمي» في دور العرض السينمائي. مسرحية الان بينت «اولاد التاريخ» تحولت الى فيلم ناجح نال اعجابا في امريكا وبريطانيا. من الافلام الاجنبية التي شهدت عروضا في دور العرض السينمائي كان «كابول اكسبريس» اخرجه كبير خان عن هنديين، وصحافي امريكي وجندي باكستاني ودليل افغاني يختطفون ويؤخذون في رحلة عبر افغانستان في رحلة عبر حافلة اسمها «كابول اكسبريس» . «ماري انطوانيت» لابنة المخرج الامريكي المعروف فرانسيس فورد كوبولا عن الامبراطورة الفرنسية ماري انطوانيت، وان لم يلق ترحيبا من النقاد الا ان صوفيا كوبولا قدمت رؤية جمالية خاصة، في عالم الابطال الخارقين عرض فيلم «عودة سوبرمان» ببطل جديد هو براندون راوث، واخرجه بريان سينغر. «آخر ملك لسكتلندا» عن حياة الرئيس الاوغندي عيدي امين، وهو فيلم قام على رواية كتبها غايلز فودين، تقدم صورة وحشية عن الرئيس السابق من خلال عيون طبيب انكليزي، واخرجه كيفن ماكدونالد، ولعب دور البطولة فيه فوريست ويتكر.

معارض وفن:

الغاليرهات اللندنية كانت حافلة ومثيرة بمعارض هذا العام مثل معرض للفنان الامريكي المعروف كاندينسكي، واحتفى «ناشونال غاليري» بالفنان الاسباني فيلازكيز، وتيت بريتين قدم اعمال الفنان المعروف بلوحاته «السفيرين» هولباين وهي من اللوحات المثيرة في رؤيتها للعصر الذي رسمت فيه، عصر جورج الثامن. وعربيا واسلاميا، نظم المتحف البريطاني معرضا للكلمة في الحرب عن الخط العربي والفن الذي يقدم الحرف كمفردة فنية، ورافق المعرض الذي استمر حتى بداية خريف العام الماضي فعاليات عديدة، محاضرات، عروض فنية وسينمائية وورش عمل وغير ذلك. وقدمت الفنانة العراقية سعاد العطار معرضا جديدا لاعمالها عن مدينة بغداد اثناء الاحتلال الجديد.

لم يكن عام 2006 بدون جدل الا انه لم يتحول لمعارك طويلة، ولكنه عام غني كما سبق بالاحداث والمناسبات والاصدارات وفي هذا السياق يمكن الحديث عن عودة يوسف اسلام الذي كان يعرف بكات ستفينز للغناء بعد ان اوقفه عندما اعتنق الاسلام في السبعينات من القرن الماضي، واقام قبل نهاية العام حفلا موسيقيا في لوس انجليس، ويحمل الالبوم الجديد عنوان «فنجان آخر». من الكتب الجميلة التي صدرت هذا العام ذات الطابع التاريخي، كتاب عن حياة آخر ملك مغولي «المغولي الاخير: نهاية مملكة دلهي عام 1857» من تأليف ويليام دالريمبل عن حياة اخر ملوك المغول الذين حكموا الهند لقرون ووفاته وحيدا في بورما بعد اعوام قليلة من تدمير البريطانيين لعاصمته دلهي. العام الذي انتهي كان حافلا بالصور والمشاهد، وكان وانتهي بصورة صدام، الرئيس العراقي وهو على حبل المشنقة، وعامنا الجديد يبدأ بقيامة جديدة وبتوقعات عن عام ثقافي حافل لعل ابرز ما ستشهده الايام الاولى منه، بداية عروض فيلم ميل غيبسون عن حضارات امريكا القديمة قبل وصول الغزاة البيض لها، وسيبدأ العام على ما يبدو بقيامة ولكن «قيامة» ميل غيبسون.

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

ملصق فيلم «سريانا»

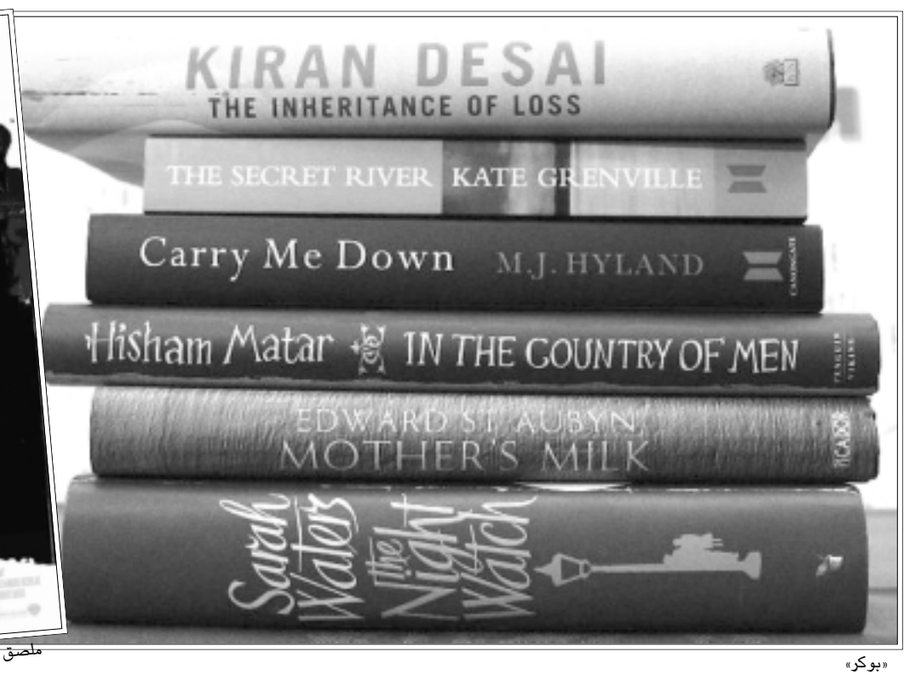

«بوكر»

رمادنا في الموقد وفجيعتنا مؤكدة:

شعب يذهب الى الموت بأناقة المدعو الى حفلة

فاروق يوسف*

لا شيء أكيد غير الموت هنا

سامي مهدي

(1)

صدقنا الكذبة: جلجامش ذهب الى جبال لبنان بحثا عن عشبة الخلود. سخر اليساري ساراماغو من اللاموت حين وضعنا في قلب الكابوس: أن لا نموت، أي جحيم هي تلك الحياة التي سنعيشها؟ القاتل يعرف أنه يسخر من الله حين يوحي لعزرائيل بما هو غير مكتوب، إنه ينحرف بالملاك عنوة عن طريقه الناعم ليلقي به بين الصخور الجارحة. القاتل يظن أنه هو الآخر يستطيع أن يرد جلجامش خائبا الى بيته. منذ جلجامش كان العراق صندوقا مقفلا على كنوز حيرته ووجعه وخيبته وذرائع انتظاره. باستمرار كان ذلك البلد اشبه بفضيحة دادائية. لم يكن يسمى (كثر الحديث الغبي بعد الاحتلال الامريكي عن عراق ولد بارادة استعمارية بعد الحرب العالمية الثانية) بل كان يسمي الأشياء كما تختبرها حواسه الفذة. فضيحة ابنائه هو: لم يرغبهم يوما ما بسواء السبيل، بل تركهم إلى قدر ضال، يعرف أنه لن يردهم اليه. كانت موعظته أكثر حزنا منه، وهو الماهر في ارتجال عثراته المتأنية. الم يختف السومريون كما لو أنهم عادوا الى الكوكب الغامض الذي قدموا منه؟ فوزي رشيد يقول غير ذلك. بعبقرية فذة أعاد الباحث الآثاري المعدان الى أصلهم السومري. كانت أرض السواد بالنسبة اليه تجسيدا للحزن الأبدي الذي عم أرض سومر بعد أن اختار نبونائيد ضياعه الشخصي، تاركا أمة وراءه في انتظار مهدي لم يحضر حتى الساعة. في هذه الساعة وفي كل ساعة فان الموت لم يكن عراقيا، (هل سمعتم بعراقي انتحر؟) غير أن الموت لم يخف العراقيين يوما. بالرغم من أن الحسين بن علي لم يكن عراقيا، فقد صار كذلك بسبب عزوفه بارادته عن حياة يقبل عليها الآخرون. والعراقيون شعب فريد في حبه للحياة. منذ النظرة الاولى يبدو المرء عراقيا عن طريق شغفه المجنون بالحياة، ولكن ذلك الحب هو تعبير مفرط في غنائيته، حيث يصف الغناء كما لو أنه تتمة لنوع تلك الحياة المتفجر. اليوم الاضافي الذي يعجز العراقيون عن وصفه هو هبة غير متوقعة. يتوقع العراقي الموت في كل خطوة استثنائية يلقيها في الفراغ (ولا يلقي العراقي خطوته إلا في الفراغ): حين يعشق (الجملة الاولى التي يقولها العراقي هي: اموت عليك، وهي جملة تخلو منها قواميس العشق لدى كل الامم)، حين يضحك (تدمع عيناه وقد يبكي قابضا على الجمرتين بيد واحدة). هو الذي رأى.

(2)

كان العراقيون يذهبون الى الموت دائما. لم يكن الموت يأتي اليهم إلا بطريقة استثنائية. ما مرعام والعراق ليس فيه موت (خالد الذكر السياب كان يقولها عن الجوع). ولقد ذهب هو الآخر الى الموت بقدميه الذاويتين في أرض ليست غريبة. (مات في المستشفى الاميري بالكويت). لم تفرق مطحنة الموت عراقيا عن آخر. (العراقي مشروع دائم للشهادة)، مقولة صدام حسين الشهيرة لم تكن ذات جرس غنائي، مثل سواها من الجمل التي كان الرئيس الغائب يتلذذ في ابتكارها. لن تلتقي عراقيا، ذاكرته غير مثقبة بالرصاص مثل حائط تذكاري عن حرب لم تنته إلا قبل قليل. (موسوعة العذاب) لا يمكن أن يكتبها سوى رجل عراقي هو عبود الشالجي (الذي اتمنى الانصات الى مفردة واحدة يقولها: العراق). كان موسى كريدي (وهو قاص مذهل) يحدثني عن مقبرة النجف كما لو أنه يصف لي أرض القمر. لم يكن هنالك مكان للرثاء في كلماته، كان اللامرئي عذبا يحضر بين كلماته التي تمر كما البشر الذين يغطسون في نهر الغانج. فيما كانت الانتفاضة الشعبية عام 1991 في أوجها ذهبت عمتي (التي كانت تبلغ السبعين يومها) لزيارة قبري أبويها في النجف. كانت رحلتها خرافية، فهي لم تكن تعرف ما يجري حولها، في الحقيقة لم يكن يعنيها ما يجري للحكومة التي لا تعرفها. وصلت بمعجزة الى القبرين وجلست بينهما وهي تبحث عمن تعطيه خبز العباس الذي حملته معها، فاذا بشابين ملتحيين يخرجان عليها من بين القبور وهما يوجهان بندقيتهما اليها، ليطلبا منها غذاء. تقول «لقد ضحكت لحظتها، فانا كنت خائفة من أن اترك الطعام للغربان». الثوار أكلوا طعام الموتى. وهي بشارة مؤسفة، كما تبين لنا فيما بعد.

(3)

يوم اضافي
شعر: سامي مهدي

هوذا اذن يوم اضافي تراه
فخذ فطورك،
ثم دخن ما استطبت من السجائر،
واسترح،
واكتب قصيدتك الاخيرة،
او وصيتك التي اجلت،
اكتبها فقد تنسى
ولا تحظى بيوم قادم، يوم اضافي سواه
فها هو القناص
لم يبرح مكان رفيقه القناص فوق البرج،
والهمرات في الطرقات حول البيت،
حولك انت،
أو دعها، فليس لديك غير الشعر
وهو الان ملك الآخرين
وخذ نصيبك من غنائم يومك الحالي:
أوراقا تقلبها،
كتابا بعد لم تقرأه،
صحنا من حساء ساخن،
شايا،
وحبة برتقال إن وجدت،
وكل ما في الامر انك لا تخاف الموت كالخيام،
حتى تسأل الايام،
عن سلوى تراها في حبيب،
او نديم
او مزيد من شراب
فأهنأ اذن
عش يومك المشبوه هذا
عشه كيف بدت لك الساعات فيه
وقل لنفسك في المساء: عمي مساء
وانتزع يوما سواه، إذا استطعت ونلت
من عصر الخراب

(4)

لأعترف الان بعد هذه القصيدة. اني كنت خائفا عليهم، وأسأل هامسا عنهم: سالم الدباغ وسامي مهدي وسعد هادي. «الجمال يتداعى» حسب اندريه بريتون، تلك نبوءته وهذا عراقنا الذي يذهب الى زواله. ولأعترف أكثر: شاعري كان ولا يزال هو سامي مهدي. تضايقني في شعره أمور: حكمته التي لا تحيل الى أي مرح ممكن، اصراره على الوزن العروضي (في القصيدة السابقة هناك خطأ مطبعي في أحد الأبيات كما أظن). وعلى المستوى الانساني كان مهدي وهو الرجل الذي لم اقترب منه إلا قليلا معلما عذبا وممتلئا حنانا. أما على الضفة الاخرى حيث كان هذا الشاعر مسؤولا اداريا فيكفيه أن يده تخرج بيضاء اينما حل. كانت اخطاؤه تغيض المتضررين بها لأنها كانت تحضر من غير أي دنس. سامي مهدي وهو شاعر معنى يصف في قصيدته (يوم اضافي) يوما عراقيا عاديا يمر من حياة استثنائية يعيشها كل العراقيين. «أصف لك يومي»، يقول صديقك العراقي من خلال الهاتف، «هو ذا اذن». الجمل يمكن اختصارها والعراقيون ماهرون في الاختصار فهم شعب لم تهبه العناية الالهية موهبة الحكي. سامي مهدي هنا بريء من خصوصيته، إنه واقعي الى درجة مرهقة. شعب يقف كله في انتظار الموت، غير أنه يكتب الشعر ليعلمنا: الموت لو جاء لن يجد في انتظاره بشرا خائفين. لقد أخطأ بوش: كثرة الموت كقلته، ليس هناك ما يخيف أكثر من حياة فائضة. كان العراقيون يسخرون من حياة جيرانهم التي تمضي من غير معنى، لذلك فقد نظروا الى وعد المحتل بحياة شبيهة بحياة جيرانهم من جهة كونها اهانة لهم. فالشعب المنذور للموت يستحق حياة أفضل. صحيح أنه حرم منها دائما، غير أن ذلك الحرمان لم يشكل يوما ما قدرا نهائيا. لا يزال هنالك يوم اضافي. يوم يصنعه الشعراء، كونهم حراس الأمل وزهرته المتأنقة في وجه الفجيعة. كان شعر سامي مهدي دائما محاولة للنبش في الرماد، وهو رماد كان الشاعر يرى اليه بعيني جلجامش القادم من جبال لبنان أو بعيني نبونائيد الراحل الى الابد.

* شاعر وناقد من العراق يقيم في السويد